عندما يجعل الآخرون حياتكَ صعبة

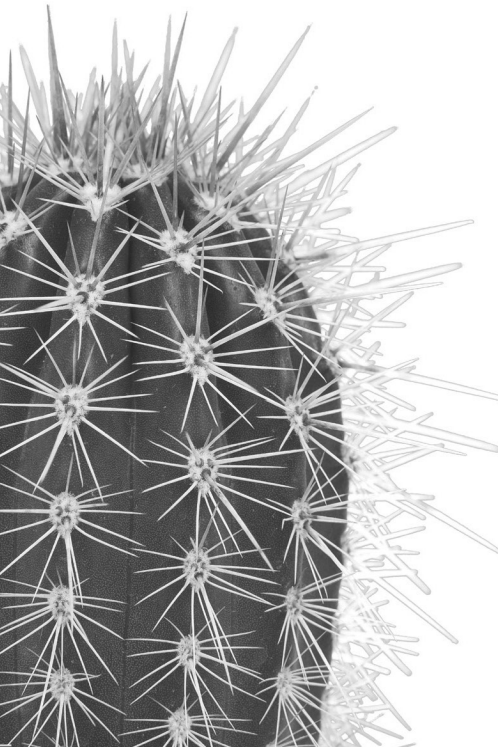

دانيال ميلير

١

فهمُ الله

الإِلَهُ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ هَذَا إِذْ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْكُنُ فِي هَيَاكِلَ مَصْنُوعَةٍ بِالأَيَادِي.

— أعمال الرسل ١٧: ٢٤

أتذكّرُ مشاعرَ الإرهاقِ الذهنيِّ التي كانت تُخالِجُني باستمرارٍ عندما كنتُ طالبًا في المدرسة الثانويّة والكلّيّة. فبعد أن حاولتُ جاهدًا فهمَ تعقيداتِ الجَبْرِ أو قواعدِ الاقتصاد، وصلتُ فجأةً إلى مرحلةٍ شعرتُ فيها أنّني غيرُ قادرٍ على استيعابِ الموادِّ التعليميّة. وقد بدا أحيانًا أنّه على الرغم من الجهود التي كنتُ أبذلُها، لم يَكُنْ ذِهني يتمتّعُ بالقدرةِ على استيعابِ المفاهيم المُدرَّسة.

تنتابنا أحيانًا مشاعرُ مماثلةٌ عندما نفكّرُ في الله. فقد تشكِّل محاولةُ فهمِ الكائنِ الأزليِّ الأبديّ، خالقِ كلِّ شيء، الذي لا يُعوزُه شيءٌ، تحدِّيًا للفكر البشريّ. كونَنا مَخلُوقِين، لا يمكنُنا على الإطلاق أن نفهمَ تمامًا فكرَ الكائنِ المعصومِ عن الخطأ، الذي خلقَنا وخلّصَنا ويعتني بنا.

لكنّ هذا لا يعني أنّنا لن نعرفَه، لأنَّ رغبتَهُ في التواصُلِ معنا دفعَتْهُ إلى خَلْقِنا (أعمال الرسل ١٧: ٢٦- ٢٧؛ رؤيا يوحنا ٤: ١١). فعلى غرار العلاقات الإنسانيّة، حيث يتحوّل الشخصُ من شخصٍ غريب إلى أحدِ المعارف، ثُمَّ إلى صديقٍ حميم، هكذا من شأنِ علاقتِنا باللهِ أن تتطوّرَ لِتَبلُغَ مستوياتٍ أعمقَ من الحميميّةِ والتفاهم. والخبر السارُّ هو أنّنا لن نبلغَ أبدًا مرحلةً ندركُ فيها اللهَ بِعُمقٍ ونَفهَمُ كلَّ ما يتعلّقُ به؛ فمهما طالت فترةُ حياتِنا أو مهما طالت معرفتُنا بالربّ، فسيكونُ لدينا دومًا المزيدُ لنتعلَّمَهُ عنه.

تنطوي معرفةُ الله على فَهمِ الكثيرِ من جوانبِ شخصيّتِه، وكيف تندمجُ في كائنٍ واحدٍ كامل. علينا أن نُوازِنَ بينَ التركيزِ على رحمتِه تجاهَ البشريّةِ وبينَ حقيقةِ عدالتِهِ التي تتطلَّبُ التوبةَ عن الخطيَّة، ويجبُ تقييمُ قداستِهِ المثاليّةِ إلى جانبِ مغفرتِهِ ونِعمتِه.

في خضمّ هذا التعلّم كلّه، ليس الهدفُ مجرّدَ تمرينٍ أكاديميٍّ لإنشاءِ صورةٍ دقيقةٍ عن الله. فالغرضُ من هذا السعي هو السماحُ لمعرفتِنا باللهِ أن تشكّلَ حياتَنا الدنيويّة، وتُعِدَّنا للحياةِ السماويّة. ومِن دونِ هذه المعرفةِ نَضِلُّ الطريقَ لا محالة. وعلى حدّ تعبير

من المستحيل أن نحافظَ على سلامة" ،(A. W. Tozer) أ. و. توزر ممارساتنا الأخلاقيّة ونُبقيَ مواقفَنا الداخليّةَ صحيحةً إذا كانت فكرتُنا عن الله خاطئةً أو غيرَ ملائمة".[١]

من ناحيةٍ أُخرى، كلّما تعلَّمْنا أنْ نعرفَ اللهَ على نَحوٍ أَفضل، أصبحَ سُلُوكُنا أشبهَ بِسُلوكِ المسيح. فإنّ الوقوفَ في رهبةٍ أمامَ قداسةِ اللهِ سيقودُنا نحو القداسة، وسيُحفِّزُنا شعورُنا بعظمةِ رحمتِه تجاهَنا على إظهارِ الرأفة. ومتى أدركْنا محبّةَ الله للعالم، ستنفتحُ أعينُنا على احتياجاتِ الآخَرين. وحينذاك، عندما نبدأُ بِفَهمِ المحبّةِ التي في قلب الله، سندركُ أنَّه يَطلبُ مِنّا أن نمنحَ هذه المحبّة، لا لِمَن هم جديرون بها فحسب، بل أيضًا لمن يسبّبونَ لنا إزعاجًا.

١ أ. و. توزر، *The Knowledge of the Holy* (ما ترجمتُه "معرفةُ القدّوس") (نيويورك: دار هاربر بوكس، ١٩٦١) ص. ٨.